الانسان بين الماديه والاسلام

تأليف الاستاذ محمد قطب

عرض وتعليق

الاستاذ حسين عبد الفتاح سويفي

ان يصدق القارئ بعد أن يفرغ من قراءة هذا الكتاب ، أن مؤلفه شاب لم يتجاوز الثلاثين من عمره ، فلو أن كاتبا أفنى عمره الطويل فى البحث والاطلاع لينتج مثل هذا الكتاب لضمن لنفسه الامتياز والتفوق . إنه يسحرك ويستهويك من أول جملة فى المقدمة إلى آخر جملة فى النهاية ، إنه يرضى ذوق الأديب ، وروح الشاعر ، وعقل العالم ، ومنطق الفيلسوف

هو بحث سيكلوجى ، يعرض عليك النفس ، فى ثوب تحليلى رائع ، وتعبير أدبى موسيقى بديع ، وإنك لتجد فيه رشاقة الأسلوب وقوة التعبير والتحليل ، وسلاسة المنطق وسلامته ، والمعرفة بأسرار النفس وخفاياها ، وطبيعة تكوينها ، ورأى العلماء والأديان فيها ، ومدى ارتباطها بالحياة ، وارتباط الحياة بها

وهو يضع الإنسان بين المادية والروحية ، وبين المذاهب الاجتماعية المختلفة ، والأديان السماوية ، ويسلط عليه هذه الإشعاعات ، ليقنعك فتقتنع معه بأن الإسلام دين الفطرة ، دين الحياة والأحياء

إنه يقول فى المقدمة : « بينما يتطرف فرويد ، فى إطلاق النفس من عقالها ، ورفع الكبت عن الغرائز المحبوسة ، وتتطرف المسيحية من الجانب الآخر فى فرض الكبت على الطاقة الحيوية للإنسان . يقف الإسلام بينهما موقفا وسطا ، فلا يفرض القيد إلى الحد الذى يرهق النفس ، ويعطل دفعة الحياة ، ولا يطلق الإنسان من عقاله ، إلى الحد الذى يرده حيوانا وياق ما نبت الإنسانية من الوصول إليه فى جهادها الطويل ، من ضوابط انزعات الحيوان »

هكذا فى إيجاز بسيط يعرض عليك موضوع الكتاب موجزا فى بضع جمل ، ثم يفصله لك بعد ذلك تفصيلا ، يقنعك كل ما فيه بصدق ما يقول

وإنه ليفجؤك بالرأى أحيانا ، فيترك فى نفسك عجبا للتساؤل والحيرة ، ثم لا يلبث أن يعيد إليك أمنك وطمأنينتك ويردك إلى نفسك ، ويرد نفسك إليك ، فعند ما تقرأ الفصل الأول من الكتاب « نظرة المسيحية » وتطالع أولى فقراته :

« المسيحية دعوة مخالفة لطبيعة الحياة والأحياء ، دعوة ترتفع بالإنسان عن نفسه ، وتصل به إلى الآفاق العليا التى تسمو عن الجسد والمادة ، الآفاق الطليقة من قيود الأرض . ومن نوازع الشهوات »

« إنها قصيدة رومانتيكية ساحرة ، وحلم جميل لشاعر نبيل — ولكنها مع ذلك مخالفة لطبيعة الحياة والأحياء — »

لا شك أن سؤالا يقوم فى نفسك !! كيف تكون المسيحية مخالفة لطبيعة الحياة والأحياء وهى دين منزل من السماء !! ولكنه لا يتركك فى هذه الحيرة طويلا فيجيبك الإجابة المقنعة البسيطة الصحيحة

« المسيحية حقنة مضادة للمادية اليهودية والرومانية التى كانت شائعة يوم بعث المسيح ، فلزم إذن أن تكون نسبة الروحانية فيها ضخمة غالبة . بل لزم أن تكون كلها روحانية متسامية ، لتتعادل مع تلك المادية ، لعلها تصلح النفوس ، ولكنها ليست نظاما طبيعيا للحياة الدائمة فى كل الأجيال وفى كل الشعوب » ثم يضرب لك الأمثال

وحينما يتحدث عن فرويد ، يعترف أنه عبقرية فذة ، ولكنه لم يكن على صواب دائما فيما يبديه من الآراء . إنه ينكر عليه « نظرته إلى الإنسان على أنه كائن أرضى بحت ، لا يرتفع بمشاعره وعواطفه عن عالم الأرض إلا فى حالات الشذوذ »

وينكر عليه وعلى داروين وعلى الغربيين عامة « هذه الروح المادية المتفكرة لكل قوة خارجة عن حدود الأرض ، ولا تؤمن إلا بميدان العلم التجريبى » ثم يناقش هذا الرأى فيقول :

« إن العلم ما يزال فى طفولته ، وما يزال كل يوم يصل إلى آفاق جديدة ، فيلغى إلغاء تاما معلومات كان ينظر إليها على أنها

حقائق نهائية لا تقبل الجدل ، ولا تحتمل التأويل »

إنه يريد من هؤلاء جميعا أن يقولوا قولا غير هذا ، يتمشى مع العقل والواقع . إنه يريد من قائلهم أن يقول :

« إنني توصلت بالشواهد الثابتة ، والتجارب المؤكدة ، إلى إثبات كذا وكذا من الأمور ، ولكن أمورا أخرى فاتتني ولم أستطع إدراكها ، ومنها سر نشوء الحياة على ظهر الأرض والسر الذي يجعل الأحياء تتشبث بالحياة ، وتتطور تبعا لذلك لمواجهة ما يحيط بها من ظروف ، ثم السر الخفي في قدرتها على هذا التطور العجيب ، ولا يمكنني في الوقت الحاضر أن أقول : إلا أنها من أسرار خالق الحياة التي لم يكشف عنها بعد الأحياء »

ولا يفوته حين يقول ذلك للغربيين ، أن يأخذ علينا نحن الشرقيين « إيماننا الأعمى بكل ما يأتي به الغرب على أنه صواب لا خطأ فيه ، ولماذا لا نعيد النظر في هذه الآراء والنظريات فنأخذ منها الصواب ونتجنب الخطأ ، ولنا عقيدتنا الخاصة التي نعترف بالعلم كما نعترف بالدين ، ونضع الإنسان في وضعه السوي »

وإنك لتحس الثورة العاتية في نفسه ، على هذا العالم المادي الثقيل المتخلي عن إنسانيته حينما يختتم هذا الفصل بقوله : « ألا إنها المغالطة الكبرى لكل حقائق الحياة ، والنفس البشرية هي التي أدت العالم ، إلى الحيوانية المتجردة ، التي ارتكس فيها بغير عذر الحيوان ، ، وبغير حصافة ، الحياة التي رسمت للحيوان حدودا معينة ، تقف عندها غرائزه ... أما الإنسان الذي كرمه خالقه ورفعه ، وجعل في يده أمر نفسه ، فإنه ينتكس اليوم إلى حالة يتصفف عنها بعض أنواع الحيوان

ثم استمع إليه ، واسخر منه كما سخر من التجريبيين ، أولئك الذين يخضعون كل شيء للعمل ، وللتجريب العلمي « يؤمن الغربيون بكل ما يحمل خاتم التجريب ، ويأخذونه قضية مسلمة ، لا تحتمل الشك والتأويل ، أما ما لا يخضع للعمل فهو خرافة ، أو على الأقل شيء ساقط من الحساب ، ولما كان الله — مثلا — لا يدخل المعمل ، ولا يخضع للتجريب ، فقد استغنوا عن خدماته ، وأعلنوا أنه غير موجود » !

على أنه مع ذلك لا ينكر خدمات العلم التجريبي ، التي أداها للبشرية ، ولكنه ينكر ، وينكر القارئ معه ، إخضاع كل شيء للعمل والتجريب ، فهناك الجوانب الروحية التي لا يمكن أن تنكر لأننا نجهل جانبا منها

« قد يستطيع الباحثون ذات يوم أن يصلوا إلى نتيجة نهائية قاطعة ، في المظاهر المادية لهذا الكون ، أما النفس الإنسانية فهي عالم واسع غير محدود ، وما زالت البشرية منذ ميلادها إلى هذه اللحظة . تتحدث عنها ، وتحاول الوصول إلى كنهها في آدابها ، وفنونها ، وفلسفتها ، وأديانها ، واجتماعياتها ، فلا ينتهي الحديث ، ولا ينقطع عنه نقطة معينة ، وإنما يتقبل البحث كل ما قيل ، وكل ما سيقال ، ويبقى بعد ذلك الباب مفتوحا للمزيد »

هذا حديث عقلية واعية صاحية مرتبة ، تعرف كيف تعبر وتدعم الحجة بالحجة ، وتفرع الرأي بالرأي ، ونأتي بعد ذلك بفصل الخطاب ، وهو يؤيد العلماء النظريين الذين يقولون « إن هناك نزوعا ، أو انفعالا نفسيا يؤثر في الجسد ، فينتج عنه حركة جثمانية تهدف إلى تحقيق هذا النزوع ، أو إرضاء الانفعال ، وينكر على التجريبيين قولهم : « إن الجسد هو الذي يتصرف في النفس »

يقول قائلهم « أي التجريبيون — إنني سمعت خبرا محزنا فبكيت ، فنشأت من ذلك عاطفة الحزن ! فالحزن نشأ من البكاء أي من الحركة الجسدية . وليس العكس ، أن الإنسان يحزن فتهمر دموعه — كما يقول العقلاء من عباد الله »

« ويقولون إنني رأيت الأسد فجريت ، فنشأ من ذلك الخوف ، لا أنني خفت فجريت »

إن المؤلف يؤمن بأن الجسد أداة منفذة لرغبات النفس ، وينكر على فرويد إيمانه بالجبرية الشعورية التي تقول : إن الحياة النفسية مصدرها الجسد ، والجسد إفرازات كيماوية ، ونشاط كهربي ، لا سلطان لأحد عليه ، لأنه يعمل بطريقة غير إرادية فقد انتفت إرادة الإنسان التي يكون بموجبها مسئولا عما يفعل »

وهل هناك دليل على تأصل المادة في حياة فرويد ، وعلى عدم اعترافه بالأديان ، والجوانب الروحية ، أقوى من هذا القول ؟

لأن الأديان جميعا تقول : بأن الإنسان محاسب على أعماله ، لأنها تصدر عن إرادته ، ولا تعفيه من المسئولية حينما يرتكب خطيئة فى حياته الدنيا ، حتى القوانين الوضعية ، تأخذ المجرم بالعقاب ، لأنه مسئول عما يفعل ، وإلا فلم يعاقب المجرم؟ ولم وضعت القوانين؟

وليتصور القارئ أى فوضى كانت تسود البشرية ، لو ترك الناس أحرارا فيما يفعلون ، باعتبار أنهم غير مسئولين عما يفعلون ! وأى فرق بينهم وبين الوحوش فى الغابات والهوام فى مسارب الأرض

إنه حين يقول ذلك « ليسقط المسئولية الخلقية ، ويسقط معها الإنسان »

وعندما يتعرض للشيوعيين يكشف زيف مذهبهم ، حين يقولون :

« — إن الإنسان هو القوة الفعالة فى هذا الوجود — وتلك جملة براقة قد توحى بأن أنصار هذا المذهب ، يؤمنون بالإنسان وبالإنسانية فى صورها الرفيعة النبيلة ، الإنسان فى مجموعه ، بما فيه من جسد وعقل وروح » فانظر كيف يكشفهم ويفضح مذهبهم حين يقول : « إنهم لا يؤمنون بالإنسان ، ليرفعوا من شأنه ، ولكن ليتفوا فقط تدخل الإله فى شؤون الخلق ، أما إيمانهم بالإنسان فعلى أساس أنه مادة ، ولكن إذا سألنا ما هو الفكر ؟ وما هو الشعور ؟ ومن أين ينبعثان ؟ يتضح لنا أنهما نتاج الدماغ البشرى ... وهذا الدماغ ليس إلا مادة ...

وهنا تظهر طبيعة المؤلف الصاحية الواعية : فيقول :

« إذا كان العقل مادة ، فإن الفكرة فى ذاتها ليست مادة ، لأنها لا تتحدد بحدود الزمان والمكان »

وهكذا يردهم إلى صوابهم حين لا يجدون الإجابة المعقولة

ثم يبين لك خطأ الرأى الشيوعى فى أن المادة هى أساس النظم الاجتماعية الصالحة ، ويقارن بين الشيوعية ، وبين الإسلام ، كنظام اجتماعى ، كانت الجوانب الروحية هى الأسس الأصيلة ، التى أقام عليها نظاما اجتماعيا صالحا فى مدى سنوات معدودات

« إن الإسلام قد انتشر بسرعة مثالية ، ما زال فريدة حتى اليوم ، ففى أقل من عشر سنوات ، أيام عمر بن الخطاب ، كان قد غمر فارس والعراق والشام ومصر والنوبة .. لم يكن ثمة بارود ، ولا اختراع حربى — مادى — يتفوق به حفنة من العرب الذين انطلقوا من الجزيرة ، يبشرون بالإسلام ، على قوى الإمبراطوريتين العريقتين ، فى فارس وبلاد الروم .. شئ واحد هو الذى تغير ، هو إحساس هؤلاء العرب بالحياة والكون ، وبالحق والعدل الأزليين .

لقد كانت العقيدة الجديدة ، هى القوة الدافعة فى هذا البناء الجديد »

وعندما ينتهى المؤلف إلى « نظرة الإسلام » يتحدث عن الفرد من خلال عدسة الإسلام ، فلا يترك جزءا من جزئيات جسمه ، ولا سربا من مسارب نفسه ، ولا هاتفا من هواتف رغباته ، ولا غريزة من غرائزه إلا ويحللها تحت ضوء هذه العدسة . ثم يبين مقدار صلة الفرد بالسماء ، ومدى سموه وصعوده ، وعلاقته بالأرض ومدى انجذابه إليها — على حسب نظرة الإسلام — ثم يأخذ له صورا متلاحقة لنزعات عقله وجسمه وروحه . . وكيف أن الانسان يساير هذه النزعات ، أو يحد من قوتها بالقدر الذى يضمن للفرد والحياة ، اضطراد النمو ، ودوام الارتقاء

وإنه ليعرض عليك النظريات الاسلامية ، فى فيلم منسق ، يرضى روحك وعقلك ، ويرد بك مناهل المعرفة الاسلامية . كل ذلك فى أسلوب يكاد من الرقة يطير ، ومن القوة يلتهب

وهو مع ذلك كله ، لم يأت بجديد على حسب (نظرة الإسلام) ولكنه ارتاد فعرف كيف يكتشف ، واطلع فعرف كيف يفهم ويفهم ، فارجع إلى هذا الفصل من الكتاب لأنه أضخم من التلخيص

وفى باب الفرد والمجتمع يعرض عليك الآراء النظرية ، والتطبيقات العلمية المختلفة للحكومات ، ويبين لك خطأ أولئك الذين يغالون فى احترام الفرد على حساب المجتمع ، والمجتمع على حساب الفرد فيقول « كلتا النظرتين مبالغ فيها إلى حد الإسراف المعيب » « فالفرد الذى يبلغ إحساسه بنفسه وذاتيته أن ينسى وجود الآخرين ، والمجتمع الذى لا يفرض للفرد ، أى وجود مستقل ، كلاهما يتجاهل طبائع الأشياء ، ويغفل من حقيقة نفسية مهمة »

وقد كان من الممكن أن يكتفى بهذا القول ففيه وعده الإقناع ، ولكنه دائما يأخذ فى كثير من التفصيل والتعليل ، لتزداد اقتناعا على اقتناع

البقية فى العدد القادم

حسين عبد الفتاح